أثر البيئة النجفية في نشوء مجالسها العلمية والأدبية وتطورها

الأستاذ الدكتور
عقيل عبد الزهرة مبدر الخاقاني
عميد كلية الآداب ـ جامعة الكوفة

أثر البيئة النجفية في نشوء مجالسها العلمية والأدبية وتطورها

الأستاذ الدكتور
عقيل عبد الزهرة مبدر الخاقاني
عميد كلية الآداب ـ جامعة الكوفة

توطئة:

تعدُّ النجف إحدى مدن المثلث الحضاري الثلاث (الحيرة، الكوفة، النجف) التي تقع في منطقة جغرافية واحدة، كانت تسمّى بـ(الظهر)، يرجع تاريخها إلى عصور قديمة، وقد بُنيت فيها قصورٌ وأديرةٌ ومعابدُ وقلاع...، ويذكر المؤرخون أنّ الملك البابلي بختنصر (٦٢٦ـ ٥٣٩ ق.م) بنى حَيْرا على النجف وحصّنه ثمَّ ضمَّ القبائل العربية فيه. وكان ملوك المناذرة وبعض أدباء الحيرة وشعرائها كعدي بن زيد العبادي وغيره، قد اتخذوا من النجف متنزها لهم ومسكنا ومعتكفا؛ لطيب هوائها وكثرة أنهارها وأشجارها، حتّى سمّيت بـ(خدِّ العذراء)، وقد سكن السريان في أطرافها، وأنشأ اليعاقبة مركزا دينيا فيها، فكان عددٌ من أدباء الحيرة يجيدون الفارسية والسريانية واليونانية[١]، وقد عاش في هذه المنطقة الرسامان الصينيان (فان شن) و(ليوتسه) بين عامي (٧٥١ ـ ٧٦٢م)[٢]. ويُقال إنَّ الخط الكوفي يرجع في أصوله إلى الخط الحيري، وإنَّ السريان كانوا وثيقي الصلة بالثقافة الإغريقية، وإنَّ كثيرا من عرب الحيرة قد نفذوا إلى هذه الثقافة، بعد أن تعلّموا السريانية ومن ثمَّ انتقلت هذه الثقافة إلى الكوفة، بعد أن مُصِّرت في عام (١٧هـ). ويُحكى أنَّ النعمان بن المنذر قد انتقى مجموعة من الأشعار وكنزها في (القصر الأبيض) الذي يُعدُّ واحدا من قصورهم الشهيرة [٣]. وبغضِّ النظر عن المعايير النقدية التي احتكم إليها النعمان في اختيار هذه الأشعار وجمْعِها، فإنَّ مثل هذا العمل، فضلا عمّا تقدّم من ظواهر ثقافية، يدلُّ على عناية كبيرة بالشعر واللغة والأدب وقضايا الفكر والثقافة العامة. ومن الأسماء التي أطلقت على النجف أيضا: (ظهر الحيرة) و(ظهر الكوفة) و(نجف الحيرة) و(نجف الكوفة)، مع أنَّ الدكتور مصطفى جواد يميل إلى أن تُضاف الحيرة إلى النجف، فيقال (حيرة النجف)[٤]، فضلا عمّا أطلق عليها من أسماء أخر، كالطور والجودي والغري وبانقيا وغيرهما، وهو ممّا استدلَّ به بعض الباحثين على عمق الارتباط الجغرافي والتاريخي والحضاري بين هذه المدن الثلاث[٥].

إذن، فقد ورثت النجف حضارتين، قبل الإسلام وبعده، وهما حضارة دولة المناذرة في الحيرة والحضارة الإسلامية في الكوفة.

وبعد، فلا شكَّ في أنَّ الثقافة الإسلامية تختلف عن ثقافات الأديان الأخرى، فهي ثقافة تدور حول محور الدراسات الأدبية؛ على أنَّ مَن أراد أن يفهم الإسلام وتشريعاته وتعاليمه لابدَّ من أن يفهم علوم العربية وآدابها أولا، وعلى هذا كانت الدراسات الإسلامية

في المدينة المنورة في عهد الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم)، قبل أن تنتقل إلى البصرة وغيرها من أمصار الفتح الإسلامي لتبلغ ذروتها في الكوفة، بعد أن اتخذها الإمام علي (عليه السلام) عاصمة للدولة الإسلامية، وأسّس في مسجدها المعظّم أولَّ مدرسة تُعنى بعلوم الشريعة والفكر واللغة والأدب.

وفي أثناء ذلك ((بقيت الكوفة تصبُّ في بحر النجف))[٦] التي بدأت العمارة تتسع فيها، وبدأ السكن ينمو تدريجيا، مع ظهور قبر الإمام علي في القرن الثاني الهجري. ثمَّ ينتقل الشيخ الطوسي عام (٤٤٨هـ) إليها؛ ليُنيخ برحله فيها ويؤسس مدرستها العلمية، فيتوافد عليها طلاب العلم، حتّى بلغ عدد المجتهدين الذي يحضرون حلقة درسه (٣٠٠) ثلاثمائة مجتهد. وتتزايد الهجرة العلمية إلى النجف منذ ذلك الوقت، أي منذ أواسط القرن الخامس الهجري، إن لم تكن قبل ذلك، من بلدان شتّى، من لبنان ولاسيّما جبل عامل والبقاع، ومن حلب وشمال سوريا، ومن البحرين والقطيف، ومن قفقاسيا وإيران وتركستان وأفغانستان والهند وأندنوسيا والصين ...، إلى غير ذلك من البلدان، وكلُّ هؤلاء جاءوا لينهلوا من معين النجف، من علومها وآدابها، وليتفقهوا في الدين، ومن ثمَّ ليعودوا إلى بلدانهم أعلاما في الفقه والأصول والفكر والأدب.

ومن اللافت للنظر أنَّ هؤلاء جميعا **قد تأثّروا بالنجف ولم يؤثّروا فيها،** فقد انصهرت ثقافاتهم المختلفة وذابت في بوتقة هذه المدينة المقدسة.

وبقيت النجف ـ في أثناء ذلك وما زالت ـ مدينة رصينةً عصيّةً، تعطي ولا تأخذ، محتفظة بطابعها العربي الإسلامي الأصيل، ولم تنفصل عن جذورها، برغم ما أصابها من حيف وما أحاط بها من أخطار جمّة وما مرّت بها من تجارب عسيرة وما انتابها من هزّات عنيفة، عبر قرون خلت .

من هنا عُدّت النجف ـ وما زالت تُعدُّ ـ إحدى الحواضر العربية والإسلامية التي أسهمت، عبر تاريخها الطويل، في إحياء التراث العربي والإسلامي ورفد حركة الفكر والثقافة، بما تمتلكه هذه المدينة المقدسة من مقوّمات علمية وثقافية واجتماعية واقتصادية ...

البيئة النجفية بين مجالسها العلمية والأدبية وما يميّزها من ظواهر ثقافية:

إذن، ليس بدعا أن تكون للنجف مجالسها العلمية والأدبية والاجتماعية المتميّزة من غيرها من المجالس. وإذا ما تلمسنا جذور هذه المجالس فإنَّ الصحن الحيدري الشريف هو المهد الأول الذي احتضن هذه المجالس في هيأتها الأولى، إذ كانت تعقد فيه حلقاتٌ أدبية على هامش الدروس الحوزوية، ثمَّ بدأت هذه الحلقات تتّسع بعد أن انتقلت إلى بيوت الأسر العلمية والأدبية في النجف الأشرف، فارتبطت بها واقترنت بأسمائها، حتّى أضحى لكلِّ أسرة من هذه الأسر مجلسٌ أو نادٍ، وقد أحصى الدكتور حسن الحكيم في (المفصّل) أكثر من ثمانين مجلسا[٧] لعلّ أبرزها: مجلس السادة آل بحر العلوم، ومجلس آل الجواهري، ومجلس آل الجزائري، يجتمع فيها أفاضل القوم، فتثار قضية من قضايا الفكر أو الأدب أو الثقافة العامة أو السياسة، ويدور النقاش حولها، فيكون للشعر حضورٌ فاعل فيها، وقد يحتدم هذا النقاش فيؤدي إلى ما يسمّى بـ(المعارك الأدبية) التي كانت تنشب

غالبا بين التيارين التقليدي أو المحافظ والتجديدي، فلا يخلو مجلس أو نادٍ من مجالس النجف وأنديتها من أن يكون فيه حلبة لهذا الصراع، كـ(معركة الخميس) التي أسهم فيها كبار العلماء والأدباء، كالمرجع الكبير الشيخ جعفر آل كاشف الغطاء، والشاعران السيّد صادق الفحّام والشيخ محمد رضا النحوي، حتّى حسم أمرها السيّد بحر العلوم[٨].

ومن اللافت للنظر ـ أيضا ـ أنَّ ما كان يجري بين روّاد المجالس النجفية من مناظرات ومساجلات، سواءٌ أكانت ثنائية، كالذي كان يجري بين شاعرين أو أديبين أو فقيهين، أم عامّة، لم يُفسد ما بينهم من ودٍّ، إذ كانوا يعودون إلى مجالسهم وكأنَّ شيئا لم يكن. وهذا ممّا يدلُّ على علوِّ قدْرهم وسموِّ هدفهم، وهم يُدركون جيِّدا ما يُنتظر من مدينة كالنجف ...، وقد أرّخ بعض أدباء النجف، ومنهم الأستاذ محمد حسين المحتصر، هذه الظاهرة شعرا، بقوله: (الوافر)

هنا حيثُ المشايخُ والشبابُ يُفرّقهم ويجمعهم كتابُ

فهم في كلِّ آونةٍ خصومٌ وهم في كلِّ آونةٍ صحابُ

ومن ورق الكتاب لهم طعامٌ ومن حبر الدواة لهم شرابُ

وليس لهم من اللذات إلّا القصيدةُ والمقالةُ والخطابُ

وإن ذُكرت قضايا الناس يوما فإنَّ قضية النجف الكتابُ[٩]

إذن، فقد كان همُّهم همّا ثقافيا، قد يختصمون أو يختلفون في رأي أو موقف أو قضية من قضايا الفكر أو الأدب أو السياسة، بيدَ أنَّهم يجتمعون على مائدة النجف، والكتابُ سيِّدُ هذه المائدة، رمزا للعلم والفكر والأدب والثقافة والمواقف الشجاعة من قضايا الوطن والأمة ...؛ حتّى غدت **أسماء بعض الكتب ومصادر العلم والفقه والأصول ألقابا لبعض أسرها العلمية والأدبية**، لعلَّ أشهرها أسرتا آل كاشف الغطاء وآل الجواهري، فأسرة آل كاشف الغطاء ترجع في أصولها إلى قبيلة (بني مالك) العربية، بيدَ أنَّهم نسبوا إلى كتاب (كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغرّاء) لجدِّهم الأكبر الشيخ جعفر الكبير(ت١٢٢٨هـ) وكذلك آل الجواهري، إذ عرفوا بهذا الاسم بعد أن ألّف جدُّهم الأكبر الشيخ محمد حسن النجفي (ت١٢٦٦هـ) موسوعته الفقهية (جواهر الكلام)...، إلى غير ذلك من الأسر التي نسبت إلى بعض مؤلفات أجدادهم، كآل (صاحب الرياض) نسبة إلى كتاب (رياض المسائل في تحقيق الأحكام بالدلائل) لجدّهم السيّد علي الطباطبائي (ت١٢٣١هـ)، **فضلا عن تسمية عدد من نساء هذه الأسر العلمية والأدبية بأسماء عدد من مصادر الفقه والأصول ومراجعهما**، مثل: (شرائع) نسبة إلى كتاب (شرائع الإسلام في مسائل الحلال والحرام) للمحقّق الحلي (ت٦٧٦هـ)، و(مدارك) نسبة إلى (مدارك الأحكام في شرح شرائع الإسلام) للسيد محمد العاملي (ت١٠٠٩هـ)، و(معالم) نسبة إلى كتاب (معالم الدين وملاذ المجتهدين) للشيخ حسن بن الشهيد الثاني الشيخ زيد الدين

العاملي (ت١٠١١هـ)، و(قوانين) نسبة إلى كتاب (قوانين الأصول) أو (القوانين المحكمة في الأصول) للميرزا أبي القاسم المحقّق القمّي (ت١٢٣١هـ)، و(هداية) نسبة إلى كتاب (هداية المسترشدين في شرح معالم الدين) للشيخ محمد تقي الأصفهاني (ت١٢٤٨هـ) و(مكاسب) و(فرائد) نسبة إلى مكاسب الشيخ مرتضى الأنصاري (ت١٢٨١هـ) وفرائده ...

وتعدُّ هذه الظاهرة من الظواهر الثقافية التي تميّزت بها البيئة النجفية من غيرها من حواضر العلم والفكر والثقافة والأدب، وهي تدلُّ فيما تدلُّ عليه، على وعي ثقافي عالٍ، ربما يندر أن نجد ما يماثله في الحواضر الأخرى.

ثمّة ظاهرة أخرى في المجالس النجفية، ربما تكون ـ أيضاـ ممّا يميّزها من غيرها، تتمثّل في أنَّ هذه المجالس لم تقتصر على طبقة معينة، فكان روّادها من مختلف طبقات المجتمع النجفي، إذ تجد الكاسب البسيط يجلس إلى جانب الأديب والتاجر إلى جانب الفقيه وهكذا...؛ رغبة في الاطلاع على المزيد والاستماع إلى كلِّ ما هو جديد في عالم الفكر والثقافة والأدب والفن والسياسة...، من هنا كانت هذه المجالس ـ وما زالت ـ تشهد إقبالا كبيرا.

ثمّة ظاهرة أخرى من مظاهر الثراء الثقافي في مدينة النجف، تتصل بمجالسها العلمية والأدبية، إذ لم يقتصر تأثير هذه المجالس على روّادها، بل امتدَّ إلى دواوين العشائر النجفية ومقاهيها، فكان للأدب والتاريخ والسياسة نصيب من أحاديثها التي يدور قسمٌ منها حول ما ينشر ويُذاع في الصحف والمجلات والإذاعات المحلية والعربية والأجنبية، فضلا عمّا يحمله الزائرون الذين يفدون على هذه المدينة المقدسة من أنباء وأخبار، تتحدث عمّا يجري في داخل العراق وخارجه .

وكان عددٌ من مثقفي النجف يتّخذون من زوايا بعض المقاهي أماكن للبحث والمذاكرة في الشؤون الثقافية والسياسية والاجتماعية، فضلا عن شؤون الرياضة والشباب. وكان أغلب هؤلاء المثقفين موظفين في دوائر الدولة؛ لذا غالبا ما كانت تمتدُّ مناقشاتهم ومساجلاتهم إلى دوائرهم، من دون أن يُنكر عليهم أحدٌ ذلك، سواءٌ أكان على الصعيد الرسمي أم الاجتماعي، بل قد يشترك بعض المراجعين لهذه الدوائر في شطر من هذه الحوارات؛ على أنَّ الجو العام للبيئة النجفية يشجّع على ذلك، فتبدو مقاهي النجف ودوائرها الحكومية مجالس مصغّرة لتلك المجالس العلمية والأدبية آنفة الذكر .

بقي أن نشير إلى أنَّ الجمعيات والمؤسسات والأندية العلمية والأدبية والاجتماعية قد ولدت من رحم هذه المجالس النجفية، كجمعية الرابطة الأدبية، وجمعية منتدى النشر، وجمعية التحرير الثقافي، وجمعية القرآن الكريم، وجمعية التوجيه الديني، وجمعية رابطة القلم، وجمعية المعلمين، وجمعية الشعراء الشعبيين، وجمعية رعاية اليتامى، ونادي الغري، إلى غير ذلك من الجمعيات والأندية والاتحادات التي كان أبرزها اتحادنا العتيد، اتحاد الأدباء والكتاب في النجف، فضلا عمّا تمخّض عنها من مهرجانات وندوات، اقترن أغلبها بالمناسبات الدينية والوطنية والاجتماعية ، كمهرجان (الأدب الحي) الذي أقامته الرابطة الأدبية في النجف عام (١٩٤٥م ـ ١٣٦٤هـ) وندواته، كندوة الإمام الحسين (عليه السلام)، وندوة المعلم، وندوة الجيل الجديد، وندوة الصحافة، وندوة الرسالة ... [١٠]

وبعد، فلاشكَّ في أنَّ للمجالس الحسينية أثرا في إثراء الجو الثقافي العام في النجف، فمع أنَّ الحديث الرئيس في هذه المجالس يصبُّ في مجرى واقعة الطف الأليمة ويدور في فلكها، بيدَ أنَّ ثمّة أحاديث أخر تعقبه، تتصل بقضايا الثقافة العامة، ويشترك فيها جلُّ مَن يحضر هذه المجالس، حتى وإن أقحموا أنفسهم فيما ليس لهم به علم؛ لذا كثيرا ما يحتكمون إلى أهل العلم فيها ليفصلوا بينهم.

أما المجالس الرمضانية فتتميّز من غيرها من المجالس التي تُعقد على مدار السنة، من حيث الحضور والوقت وطبيعة الموضوعات التي تناقش فيها، إذ تكتظُّ بالحاضرين وتستمر إلى وقت السحر، ولم يقتصر الحديث فيها على الجوانب العلمية والأدبية، بل يمتدُّ إلى قضايا المجتمع كافة، إذ توضع الخطط السياسية وتحلُّ المنازعات الإجتماعية، ففي هذه المجالس ـ مثلا ـ أعدَّت الخطّة لثورة النجف عام ١٩١٨، وحُلَّت مشكلة النزاع التقليدي بين عشائر الشمرت والزكرت [١١].

إذن، لم تنجُ طبقةٌ من طبقات المجتمع النجفي من تأثير البيئة النجفية عامّة ومجالسها العلمية والأدبية خاصّة.

وبمرور الوقت أضحت هذه المجالس أندية ثقافية وأدبية وملتقى لرواد العلم والأدب وأرباب الفكر والسياسة، أي أنّها صارت أكثر تنظيما ممّا كانت عليه. ومن مظاهر هذا التجديد هو أنَّ السياق العام أصبح يقوم على إلقاء المحاضرات ـ أولا ـ ، ومن ثمَّ يعقِّب الحاضرون على ما جاء في المحاضرة، مثلما يجري اليوم، بعد أن كان السياق العام لهذه المجالس يقوم على إثارة قضية معينة، من دون الإعداد لها، ثمَّ يدور النقاش حولها .

وفي ضوء ما تقدّم، نستطيع أن نتبيّن أثر البيئة النجفية في نشأة مجالسها العلمية والأدبية وتطورها، وأنَّ هذه المجالس لم تكن كغيرها من المجالس، بما تميّزت به، شكلا ومضمونا...

Abstract :
Najaf is one of the metropolises of Arab and Islamic countries that have contributed, throughout its long history, to the revival of Arab and Islamic heritage and supply the movement of thought and culture, employing the economic, social, cultural and scientific elements of this holy city.

One manifestation of the cultural richness of Najaf city is that it has had forums of scientific, literary and social distinct from other meetings. Those forums have been accompanied by names of the scientific and literary families that had established them.

Every family of these households has had its own meeting or forum where elite people meet to have an issue of ideology, literature, culture or public policy for debate. Therefore, poetry plays an active role and the discussions may reach a point of controversy, which leads to what so called **(Literary battles)**. Those battles usually erupt between the two currents: the traditional or conservative and the regenerative.

Among its cultural heritage manifestations is that names of some books and sources of science and jurisprudence have become surnames to some of its scientific and literary families as Aal-Kashif Alghitaa and Al-Jawahiry. This is considered as one of the cultural phenomena that characterized Najaf environment from other literary and cultural metropolises, which shows that, as evidenced by, there is a high cultural awareness probably rare to find its equivalent in other metropolises.

Although most of the pioneers of these forums represented Najaf scholars and literary men, however, they are not limited to this class but included all social classes of Najaf.

Therefore, the Najafi society generally influenced literarily and scientifically by those forums due to its interest in seeing more and listening to all that is new in the world of thought and culture, literature art and politics. Hence, those forums have been witnessing a high attendance.

هوامش البحث

(١) أنظر: تاريخ الرسل والملوك والأمم، لمحمد بن جرير الطبري:٢٨/٢، والكامل في التاريخ، عز الدين بن الأثير: ٣٤٠/١، ومعجم البلدان، ياقوت الحموي، والأحلام، على الشرقي:٥٢،٥١، والموسوعة النثرية، علي الشرقي:١٧٠/١، والمفصّل في تاريخ النجف الأشرف، د. حسن عيسى الحكيم:١٠/١.
(٢) أنظر: خطط الكوفة، ماسينيون:١٠٥
(٣) أنظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة:١٠، والخصائص، ابن جني:٣٨٧/١
(٤) أنظر: موسوعة العتبات المقدسة (قسم النجف)، د. مصطفى جواد:٢٦/١
(٥) أنظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القلقشندي:٣٣٣، و معجم البلدان:٢٧٢/٥، ونهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويري:٤٢٩، وماضي النجف وحاضرها، الشيخ جعفر محبوبة:٨/١، والمفصّل في تاريخ النجف الأشرف: ١٠/١
(٦) أنظر: الأحلام:٤٢
(٧) أنظر: فهرست الجزء الرابع عشر من (المفصّل في تاريخ النجف الأشرف).
(٨) أنظر: ماضي النجف وحاضرها:٣٩٢/١، وشعراء الغري، علي الخاقاني:١٧/١، والحالي والعاطل في تتمّة الآمل، د. عبد الرزاق محيي الدين:١٢، والعوامل التي جعلت من النجف بيئة شعرية، جعفر الخليلي:٤٠، ومقدمة كتاب (عقد الفضولي)، محمد تقي الحكيم: ١٧،١٦
(٩) أنظر: المساجلات الأدبية والظُرَف في مجالس النجف، محمد حسين المحتصر، مجلة التراث الشعبي، العدد الثالث، ١٩٩٠م: ٥٢، والمفصّل في تاريخ النجف الأشرف:٣١٦،٣٠٠،٤/١٥
(١٠) أنظر: الجزء الثامن عشر من (المفصّل في تاريخ النجف الأشرف).
(١١) أنظر: (كيف عرفت السيد علي بحر العلوم)، جعفر الخليلي، مجلة النجف، العددين (٦،٥)، السنة الرابعة:٦